باب ذكر زي الظرفاء في الطعام الذي بانوا به عن منزلة اللئام

اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم، والتحالل عن الشره والنهم، وأكل الأوساط الرقاق، والبزماورد الدقاق، وليس يأكلون العصبة والعضلة، ولا العرق والكلوة، ولا الكرش والقبة، ولا الطحال والرئة، ولا يأكلون القديد؛ يأكلون الثريد ولا ما في القدر من الورق، ولا يستحسنون المرق، ولا يتبعون مواضع الدسم، ولا يملئون أيديهم بالزهم، ولا يجللون الملح، وهو عندهم من أكبر القبح، ولا يكوكبون في الخل، ولا يمنعون في أكل البقل، ولا يأكلون الطلع لشبه رائحته برائحة الماء الدافق، ولا يمششون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ؛ وإنما مشاشهم ما لان وصغر ولا ما غلظ وكبر، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهر الأصابع ويطرحونه ناحية من الخوان، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان، ولا يتعدون مواضعهم، ولا يلطعون أصابعهم، ولا يملئون باللقم أفواههم، ولا يدسمون بكبرها شفاههم، ولا يقطرون على أكفهم، ولا يعجلون في مضغهم، ولا يأكلون بجانبي الشدقين، ولا يزاوجون بين الاثنين، ولا يجاوزون ما بين أيدهم شيء من الفتات، ولا يأكلون قدرًا باتة ولا قدرًا مسخنة، ولا يغمسون في مرقة، ولا يضعون لقمة، ولا يأكلون شيئًا من الكورنج الصحنات،ولا الربيثاء والسميكات، ولا شيئًا من الكواميخ والمالح وأكل ذلك عندهم من الفضائح؛ لا أن القينات المتظرفات والنساء القصريات،ربما تظرفن بأكل المالح والمملوح في منازل متعشقيهن وبيوت مرابطيهن، يذهبن مذهب طرح المؤونات وخفة النفقات، لا يأكلون الجراد والأربيان لعلة شبههما بالأشياء القبيحة من الحيوان، ولا يأكلون الحبوب التي تهيج

الأرياح وتولد القرقرة والانتفاخ، ولا يأكلون أكثر من أكلة ويكثرون القيام من مجالسهم، ولا يكثرون من الضحك والكلام عند حضور المائدة والطعام، ولا يتخللون على المائدة قبل أن تفرغ، ولا يتحفزون لمجيئها قبل أن توضع، وإذا غسلوا أيديهم لم يطلبون الغسل قبل طلب إيتائها من الوسخ والكدر، ولم يقصدوا التقصير الذي يبقى منه رائحة الغمر.

وكذلك أيضًا إذا تمندلوا فعلوا كفعلهم إذا غسلوا؛ فأما النقل فإنهم يحضرونه موائدهم ويطعمونه ولائدهم ولا يكثرون من أكله ولا يأتون على كله؛ وإنما يعبثون منه بالشيء اليسير من النعنع ،ويجتنبون من ذلك الهندبا، والأكشوث؛ لبردهما، والفجل والحرف لنتنهما، والكراث والبصل لرائحتهما، والقداح والخندقوقا لخشنهما؛ ولأنهما أيضا يخضران الأسنان والعمور ويحثدان الرائحة التغيير، ولن يقع الثوم في قدر فيذوقونه ولا البصل فيقربونه، ولا يلفظون باسم الطرخون لابتداء اسمه وشناعة لفظه فيكنون عنه فيضيفونه إلى النعنع، وقد سماه بعضهم بقلة الجياع، وسماه آخرون كافور الفؤاد وكل يقصد إلى معناه، والخس لا يقربونه لموضع تفقئته، والخيار لا يأكلونه لعلة برده، والجزر يتجاللون عن مسه ولا يرون النظر إليه دون أكله، وكذلك القثاء والهيلون؛ ولموضع النوى أيضًا رغبوا عن أكل الزيتون ورغبوا عن أكل ما خالطه من النوى من فاكهة الصيف والشتاء مثل: القصب، والبسر، والمشقق أيضًا، والتمر، وكذلك سائر الأرطاب، والمشمش، والنبق والعناب، وكذلك في الخوخ والشاهلوج، والأاجاص وهو عندهم من أكل العوام لا من أكل الخواص، ولا ينفق عندهم الرمان والتين وهذان عندهم والبطيخ من تهجين خاصة، إذا انشقت الرمانة وتصدعت البطيخة إذا انكسرت وجوزة ولوزة، وتينة، وموزة، ولا يدفع بعضهم إلى بعض وردة واحدة ولا نبقة واحدة ولا لوزة واحدة للتسفيل ولما يقع فيه من التمثيل.

ولا تقول متظرفة لأخرى: هذه وردتك ولوزتك ونبقتك وجوزتك ورمانتك وتينتك؛ وذلك عندهم أجل العيوب، تشمئز منه القلوب، ويجتنبون له أشد الاجتناب، ويكتئبون له أمرَّ اكتئاب، وكذلك لا تقول واحدة لأخرى: ارفعي رجلك ولا ذيلك ولا أقعدي عليه، ولا دخليه وأخرجيه، ولا أصعديه لا صبيه، ولا أنفخيه، ولا سيبي، ولا سرحي، ولا شيلي، ولا أنتحي، ولا أعملي، ولا قد عملت ويجتنبون ذلك وما أشبهه من الكلام مما كثر استعماله في خطاب العوام، ولا يكادون يلفظون به ولا يطيف بأستهم، ولا يجيزونه في شيء من مخاطبتهم ويحذرونه ويتوقون منه ويعيبون المتكلم به ويعرضون عنه.

باب ذكر زيهم في الشراب الذي يتخيره ذوو الألباب

أما ما عليه الظرفاء وأهل المروءة والأدباء، فإنهم لا يشربون من الشراب أسوده، ولا يشربون إلا أجوده مثل: المشمش، والزبيبي، والمعسل، والمطبوخ، والطلاء، والمعدل، ولا يقربون ما لاثمه الخثر، ولا ما خالطه الكدر، ولا يشربون إلا ما صفا من الشراب، ويتجاللون عن المسحور الدوشاب؛ إذ هو من شراب العامة والرعاع وشرب السوقة والاتباع، ولا ينتقلون على شرابهم بالأشياء الرذلة مثل: الباقلي والبلوط، والبسر المقلو، والقريثاء، والحنطة، والغبيراء، والشاهبلوط، والخرنوب الشأمي، وما أشبه ذلك من الأبقال، وأكثر ما ينتقل به المتظرفون ويعبث به المتزيكون، مملوح البندق، ومقشر الفستق، والملح النفطي، والعود الهندي، والطين الخراساني، والملح الصنعاني، والسفرجل البلحي، والتفاح الشامي، ويتخذون من كل شيء من الآنية أسراه.

ومن الزجاج أجوده وأنقاه؛ وأما ما اجتنبوه من الهدايا وتخوفوا من هدايته البلايا، فأشياء يكثر بها العدد ويصول بها الأمد، وأنا أذكر من يسيرها ما يستدل به على كثيرها.

باب ذكر الأشياء التي يتطير الظرفاء من إهدائها ويرغبون عنها لشناعة أسمائها

فمن ذلك الأترج، والسفرجل، والشقائق، والسوسن، والنمام، وأطباق الخلاف والغرب، والبان؛ فأما الاترج فإن باطنه خلاف ظاهره، وهو حسن الظاهر حامض الباطن طيب الرائحة مختلف الطعم؛ ولذلك يقول فيه الشاعر:

أهدى لـه أحبابه أترجة ... فبكى وأشفق من عيافة زاجر
خاف التلون إذا أتته لأنها ... لونان باطنها خلاف الظاهر
فرق المتيم من حموضة لبها ... واللون زينها لعين الناظر

وأما السفرجل؛ فلأن فيه اسم السفر، وقد قال فيه الشاعر:

متحفي بالسفرجل ... لا أريد السفرجلا
اسمه لو عرفته ... سفرجل فتاعتلى

وقال آخر:

أهديت إليه سفرجلًا فتطيرا ... منه وظل متيمًا مستعبرا
خاف الفراق لأن أوله اسمه ... سفر فحق له بأن يتطيرا

وأما الشقائق؛ فلشطر اسمه، ولقول الشاعر فيه:

لا تراني طوال دهري أهوى الشقائقا
إن يكن يشبه الخدو د فنصف اسمه شقا

وقال آخر:

لا يحـــــب الـــــشقائقا ... كـــل مـــن كـــان عاشـــقا
إن نـــصف اســـمه شـــقا ... ء إذا فهـــــتَ ناطقـــــا

وأما السوسن؛ فلأن اسمه السوء، وقال فيه الشاعر:

سوســـنة أعطتنيهـــا ومـــا ... كنـــت بإعطائكهـــا محـــسنه
شـطر اسـمها سـوء فـإن جئـت بالـ ... ـآخر منهـا فهـو سـوء سـنه
وأنـــت إن هـــاجرتني ســـاعة ... قلـت أتـت مـن قبـل السوسنة

وقال آخر:

بـاذا الـذي أهـدي لنـا سوسـنًا ... مـا كنـت في إهدائـه محـسنا
أولـــه ســـوء فقـــد ســـاءني ... يـــا ليـــت أني لم أر الـــسوسنا

وأما الياسمين؛ فلمبدأ اسمه تطير منه، ولقول الشاعر:

إني لأذكـــر بالريحـــان رائحـــة ... منهـــا فللقلـــب بالريحـــان إينـــاس
وأمنح الياسـمين البغض مـن حـذري ... لليـأس إذ كـان في بعـض اسـمه يـاس

وقال آخر:

أبـــصرته في المنـــام نـــاولني ... مـــن كفـــه الياســـمين والغربـــا
فكـان يـأس مـن الياسـمين وفي الـ ... ـغرب اغـتراب يـا شـوم مـا وهبـا

وقال آخر:

أهـــدي حبيبـــي ياســـمينًا فبـــي ... مـــن سره الطـــيرة وســـواس
أراد أن يـــوئس مـــن وصـــله ... إذ كـــان في شـــطر اســـمه اليـــاس

وأما النمام؛ فلشناعة اسمه، وقول الشاعر فيه:

حييتهـــا بتحيـــة في مجلـــس ... بقـــضيب نـــمام مـــن الريحـــان
فتطـــيرت منـــه وقالـــت أقـــصه ... لا تقـــربنَّ مـــضيع الكـــتمان

وأما الآس فقد تطير منه قوم وزعموا أنه إياس، وتفاءل به آخرون وزعموا أنه مواساة وأساس، قال الشاعر:

مـــا أحـــسن الآس في عينـــي وأطيبـــه ... لـــولا اتـــصال حـــروف الآس بالياس
ما ضرَّ من كـان أهـدى الآس مـن يـده ... لـــو قـــال ريحانـــة يعنـــي بـــه الآسي
ولا الـــذي أتقـــى مـــن طـــيرتي بهـــما ... مـــا فارقـــا أبـــدًا تاجًـــا عـــلى راسي

كذلك تطيروا من الخلاف لموضع الخلف، والغرب للاغتراب، والبان للتباين، وروي عن كثير عزة أنه بلغه أنها عليلة وأنها تتشوقه، فخرج يريدها وهي بمصر فرأى غرابًا ساقطًا على بانة ينتفق ريشه، ويطائره على رأسه فتطير من ذلك وأتى عرَّافًا من نهد أخبره بما رأى؛ فآيسه من حياتها وأخبره بوفاتها، فلما وصل إلى مصر خبر بموتها فأنشأ يقول:

فـــما أعيـــف النهـــدي لأدر دره ... وأعلمـــه بـــالزجر لأعـــز نـــاصره
رأيـــت غرابًـــا ســـاقطًا فـــوق بانـــة ... ينتـــف أعـــلى ريـــشه ويطـــايره
فأمـــا غـــراب فـــاغتراب مـــن الهـــوى ... ويـــان فبـــين مـــن حبيـــب تعـــاشره

وقال أبو الشيص:

أشـــاقك والليـــل ملقـــي الجـــران ... غـــراب ينـــوح عـــلى غـــصن بـــان
أحـــص الجنـــاح شـــديد الـــصياح ... يبكـــي بعينـــين مـــا تـــدمعان
وفي نعبـــات الغـــراب اغـــتراب ... وفي البـــان بَـــينٌ بعيـــد التـــداني

وقال بعض الأعراب:

وكنت قد اندملت فهاج شوقي ... بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي ... على غصنين من غرب وبان
فقلت لصاحبي وكنت أحرى ... بزجر الطير ماذا تخبران
فقالا الدار جامعة بسعدي ... فقلت بل أنتما متيمنان
وكان البان أن بانت سليمي ... وفي الغرب اغتراب غير وان

وقال نصيب:

ألا راع قلبي من سلامة أن غدا ... غراب على غصن من البان ينعب
فأزجر ذاك البان بينًا مواشكا ... وغربة دار ما تداني فيصقب

وقد استسخنوا هدايا كثيرة وتفألوا فيها بقول الشاعر، وإن كان بعضها مما ذكرناه أنهم لا يتهادونه من طريق الظرف، واجتنبوه لعلة التسفيل وأحبوه من حسن التفول، فمن ذلك الرمان وهو مما ذكرناه أنهم لا يتهادونه؛ لما فيه من التسهيل وما يقع فيه من التمثيل، وكذلك الشاهلوج والنبق والورد والبنفسج؛ فأما الرُّمَّان فقد قال فيه الشاعر:

أهدت إليه بظرفها رمانًا ... تنبيه أن وصالها قد آنا
قال الفتى لما رآه تفولا ... وصل يكون متممًا أحيانا
رم يرم تشعثي بوصالها ... لقد التفؤل صادقًا قد كانا

وأما الشاهلوج فهو مما فيه النوى، وقد تهاداه قوم لموضع تفؤل الشاعر به إذ يقول:

أهدت إليه الآن شاهلوجًا ... تنبيه أن لو جاء كان ولوجا

فمضى على فأل الهدية حاسرًا ... عمدًا فصار مداخلًا خريجا

وأما النبق فهو يستقبل، وقد قال فيه الشاعر:

أيا أحسننا خلقًا ... ومن فات الورى سبقا
تفاءلت بأن تبقى ... فأهديت لنا النبقا
فأبقاك إله النا ... س ما سرَّك أن تبقى
وأشقى الله شانيك ... وحاشى لك أن تشقى

وأما البنفسج أيضًا، فقد قال فيه الشاعر:

أهدت إليه بنفسجًا يسليه ... تنبيه أن بنفسها تفديه
فارتاح بعد صبابة وكآبة ... ورجا لحسن الظن أن تدنيه

وأما الخوخ، فقد أطنبوا في وصفه وأكثروا من مدحه وزعموا أنه أشبه شيء بالخدود من التفاح، وأقرب شبهًا بالوجنات الملاح؛ لأنه يشاركها في البياض والسمرة والأدمة والصفرة والتورد والحمرة والزغب اللين البشرة، وهو أطيب ملثم وأعزب مقبل وأذكى مشم، وهو عند طائفة من أهل الهوى أجلُّ مرتبة من التفاح لولا ما خالطه من النوى الذي لم يشمأز منه الظرفاء ويشناه الأدباء، وأنه مفقود والتفاح موجود؛ وأما الورد فقد تفاءل به كثير من الظرفاء وذكره كثير من الشعراء، أنشدني بعض الأدباء:

أهدى له وردًا فأخبر أنه ... في الواردين ولم يكن ورادا
فارتاح من فرح بطيب وفوده ... وعدا له ورد الحياء فزادا

وليس عندهم في الروض شيء يشبهه ولا في عروض الروض ما يدركه، وقد ذكرت ذلك في باب لطيف لرغبتي في اقتصاد التأليف، فقف عليه واعرفه.

باب ما قيل في صفة الورد ومحله في قلوب ذوي الوجد

اعلم أن الظرفاء قد أكثروا من تفضيل الورد، ومدحته الشعراء وقد أطنب فيه وأفرطوا في نعت حسنه، واشتهوا رائحته حتى شبهوه بالوجنات الحمر وقايسوه إلى الخمر، ومثلوه بالأشياء الملاح كفعلهم بالتفاح، وهما عندهم في مرتبة واحدة، قال العباس بن الأحنف:

أبغض الآس والخلاف جميعًا ... لمكان الخلاف واليأس منها
أحب التفاح والورد حتى ... لو وزنتيه بالجبال وزنها
أشبها ريقها ونكهة فيها ... فهما ينبئان بالطيب عنها

وقال آخر:

عشية حياتي بورد كأنه ... خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
وولى وفعل الخمر في حركاته ... فعال نسيم الريح بالغصن الغض

وقال آخر:

يضحك الورد إلى ور ... د بخديك مقيم
جمعا شكلين وقفيـ ... ـن لألحاظ النديم
غير أن المسك أولى ... بك من كل نسيم

وقال آخر:

سيعلم الورد أني غير ذاكره ... إذا الخدود أعارت حسنها بصرى

كم بين ورد مقيم في أماكنه ... وبين ورد قليل المكث في الشجر
هذا جني مصون في منابته ... وذاك ممتهن في كل محتضر

وقال عبد الله بن عبد الله بن طاهر:

مرَّت وفي كفها ورد فقلت لها ... حبي محبك قالت عنه لي شغل
فقلت بخلًا فقالت قد وهبت له ... وردًا جنيًّا وذا بالكف يبتدل
إن كان لم يجنه منه أناملـه ... فقد جنته له الألحاظ والمقل

وقال آخر:

ورد خديك مقيم ... أبدًا ليس يريم
أنا منه في نعيم ... ما بدا منه نعيم

وقال آخر:

تمتع من الورد القليل بقاؤه ... فإنك لم يفجعك إلا فناؤه
وودعه بالتقبيل والشم والبكا ... وداع حبيب بعد حول لقاؤه

وقد تطير منه آخرون وسموه الغدَّار وغضُّوا دونه الأبصار؛ لقلة لبثه ويسير مكثه وسرعة زواله وتغيره وانتقاله، وخبرت أن قينة أهدت إلى ربيط لها غصن آس فسرَّ به وأنشأ يقول:

والآس يبقى وإن طال الزمان به ... والورد يفنى ولا يبقى على الزمن

وأهدت له وردًا تطير منه وقال:

أنت ورد ويقاء الـ ... ـورد شهر لا شهور
يذهب الورد ويفنى ... وإلى الآس نصير

فكتب إليه بعض إخوانه:

سُرَّ بالآس الذي أهدت له ... ثم لما أهدت الورد جزع

ذلك أن الآس باق دائمًا ... ولأن الورد حينًا ينقطع

وقال بعض الشعراء:

وصلت وكان الورد أول ما بدا ... فلمَّا تولى الورد ولت مع الورد

فيا ليت أن الورد آس فإنه ... يدوم على الحالين في الحر والبرد

وفضائل الورد أكثر من أن يُحصى عددها أو يبلغ أمدها، وقد أفردت لذلك كتابًا بوبته أبوابًا، وترجمته بكتاب العقد وشحته بفضل الورد فأغنى ما في ذلك الكتاب عن إعادة ذكره في هذا الباب.

والتفاح أعظم عندهم قدرًا وأجلُّ أمرًا، وأعلى درجة وأرفع رتبة؛ لسلامته من البياض والتوريد، وقد ذكرت فضائل التفاح في كتاب التفاحة في غير باب؛ فأغنى عن إعادته في هذا الكتاب؛ غير أني أذكر في كتابنا هذا جملة مما وصفته به الأدباء ومدحته به الشعراء، ولست أذكر في عرض هذا الكتاب شيئًا مما في ذلك الكتاب؛ لأن لا يبتلى بشيء من المحن فينسب إلى ضيق العطن، وبالله التوفيق.

باب ذكر التفاح وما كره الأدباء من أكله

اعلم أن التفاح عند ذوي الظرف والعشاق وذوي الاشتياق لا يعدله شيء من الثمر ولا النور والزهر، كيف وبه تهدأ أشجانهم، وبوروده تسكن أحزانهم، وعنده يضعون أسراهم وإليه يبدون أخبارهم؛ إذ كان عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس وبموضع الصاحب والجليس، وليس في هداياهم ما يعادله ولافي ألطافهم ما يشاكله؛ لغلبة شبهه بالخدود الموردة والوجنات المضرجة، وهو عندهم رهينة أحبابهم وتذكر أصحابهم إلى وردته يتطربون وبرؤيته يتستبشرون، ولهم عند نظرهم إليه أنين، وعند استنشاق رائحته حنين، حتى إن أحدهم إذا غلب عليه القلق وأزعجه الأرق لم يكن له معول إلا عليه ولا مشتكي إلا إليه، وأنشدني بعض أهل الأدب:

لما نأى عن مجلسي وجهه ... ودارت الكاس بمجراها

صيرته تفاحة بيننا ... إذا ذكرناه شممناها

وأهلها تفاحة أشبهت ... خديه في بهجتها واها

وقال الحكمي:

تفاحة جاءت وقد علقت ... وركبت بالورد والآس

أشرب من كأسي على ريحها ... بالرغم من أهلي وجُلاسي

وقال آخر:

تفاحة أهديت ظرفًا معضضة ... وقد جرى ماء ثغري في ضواحيها

بيضاء في حمرة علت بغالية ... كأنما جنيت من خدِّ مهديها

قد أتحفتني بها في النوم جارية ... روحي من السوء والأسقام تفديها
لو كنت ميتًا ونادتني بنغمتها ... لخلت للصوت من لحدي أليبها

وقال آخر:

حياه من يهوى بتفاحة ... قد عض أعلاها بأسنانه
جاد ولم يبخل بها بعد ما ... عذَّبه دهرًا بهجرانه

وقال آخر:

تفاحة تأكل تفاحة ... ياليتني كنت الذي يوكل
فالتمر والثغر لكي أشتفي ... بملة الأكل ولا أوكل

وقال آخر:

تفاحة من عند تفاحة ... قريبة العهد بكفيها
أحب بها تفاحة أشبهت ... حمرتها حمرة خديها

وقال آخر:

تفاحة حمراء منقوشة ... ركبتها في خضرة الآس
فلم تزل في كفِّ ندماننا ... تدور من كأس إلى كاس

وقال آخر:

تفاحة من عند تفاحة ... ضمخها المهدي لها بالبعير
يا مهدي الحسرة يا قاتلي ... أهديت لي والله قصم الظهور
قد كنت في بحرين من حبكم ... فصرت مذا أهديتها في بحور

وقال آخر:

فلو كنت اشتكيت لأجل حزني ... وما ألقاه في دار الخلود
وكان طعامنا فيها جنيًّا ... من التفاح والورد النضيد
لقلت دعوا لها حصصي فإني ... أشبهها بألوان الخدود

وقال آخر:

حيَّاه من يهوى بتفاحة ... قد جُنيت باللحظ من خده
معضوضة باللحظ محفوفة ... بعسكر الآجال من صده
لو شمَّها الخلق لماتوا معًا ... لعشر ما يلقاه من جهده

وقد مضى من هذا الباب مقنع وهو كثير متسع، ولهم أشياء من زيهم جليلة ونتف من مناقبهم نبيلة، أنا أصفها لك في موضعها وأقطعها من مقاطعها؛ منه السواك الذي صيروه كأحد الفروض الواجبة والأمور الإرادية، وقد شرحت فيه بابًا لتقف عليه إن شاء الله.

باب ما جاء في السواك وما قيل في عود الأراك

اعلم أن من زيِّ الظرفاء وأهل المروءة والأدباء وأرباب الديانة والترفل، استعمال السواك والتسوك فهو أنبل النظافة وأحسن الطهارة وأكمل المروءة، ويرغب فيه أهل الظرف والفتوة، وله خصال مستحسنة، وهو أيضًا من السنة؛ وقد روي في الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**طهروا أفواهكم؛ فإنها مسالك التسبيح**». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: السواك مطهرة للفم مرضاة للرب. وحدثنا أبي قال: حدثنا ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن ادريس، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمر، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**السِّواك مَطْهرة للفم مرضاة للرب**».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل تسوك، وعن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لقد أُمرت بالسواك حتى حسبت أن يكون يكتب علي**». وعن ابن أبي مليكة قال: عائشة تقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي وليلتي ويومي وبين سحري ونحري وخلطت ريقه بريقي، فقلت: يا أم المؤمنين، وكيف خلطت ريقه بريقك؟ قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده سواك فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: قد اشتهى السواك فأخذت سواكه فمضغته، ثم أعطيته فاستاك عليه السلام.

فلم يشغل النبي صلى الله عليه وسلم نزول الموت عن طلب السواك؛ إذ هو أظرف ما استعمل وأنبل ما استحسن؛ لأنه يبيض الأسنان، ويصفي الأذهان،

ويطيب النكهة، ويطفئ المرة، وينشف البلغم، ويشد اللثة، ويقوي العمور، ويجلو البصر، ويحد النظر، ويفتح السدد، ويشهي الطعام، وقد استعملوا أمر المساويك الأراك والسكر وأصول السوس وعود المحلب وعروق الأذخر وعقد العاقر قرحا، وكلما أغربوا في اتخاذ ذلك كان أكمل لظرفهم وأبلغ في معاني وصفهم.

وللمساويك أوقات معلومات، ومواضع محدودات لا تستعمل في غير أوقاتها ولا يتجاوز بها عن ساعاتها؛ فجائز استعمالها بالغدوات والعشيات، وأوقات الظهيرات، وقبل الغداة، وبعد الصلاة، وعلى الريق، وعند النوم، وفي نهار الصوم، ولا يجوز السواك عندهم في مواطن شتى منها؛ الخلاء والحمام وقارعة الطريق ومحفل الناس.

ولا يستاك أحدهم وهو قائم ولا متكئ ولا نائم ولا حيث يراه أحد، ولا يستاك ويتكلم، والسواك في الخلاء والحمام من فعل السفلة والعوام، وهو أيضًا يرخي اللثة ويغير النكهة، وليس ذلك عندهم من فعل الأدباء ولا من فعل ذوي المروة والظرفاء، وقد اتخذ أهل الظرف للمساويك طسوتًا لطافًا وأباريق الشبه الخفاف، وكراسي الآبنوس المصدفة، والخيزران المشبكة، والأحقاق المخروطة، والمسواكدانات المدهونة، والسنونات المعمولة، ووقتوا له الأوقات المعلومة التي جعلوها كالفرائض المكتوبة والسنن المفروضة يتأهبون لوقته ولا يستعملون رأس المسواك مدة طويلة وذلك عندهم من الأفعال الذليلة، ويتخذون لها اللفائف الخز، وعصائب القز ليصونوها بذلك عن الدنس ويوقوها من الغبار والنجس، وقد تهادى أيضًا أهل الظرف المساويك وأقاموها مقام الرهينة والتذكرة والوديعة والقبلة، كما فعلوا باللبان الممضوغ والتفاح المعضوض، وقال العباس بن الأحنف:

طال ليلي بجانب الميدان ... مع جوازي المهدي والخيزران

أرسلت باللبان قد مضغته ... بين تفاحتين في ريحان
وبمسواكها الذي اختاره الله ... لفيها من طيب الأغصان
فكأني وجدت ريحًا من الفردو ... س فاحت من ريح ذاك اللبان

وقال أيضًا:

ولما وهبتم خاتمًا فرددته ... لمعرفتي أن الخواتيم تقطع
فأهدى سواكًا مسَّ فاك فإنه ... يسكن نارًا في جوى القلب تلذع

وقال بشار بن برد العقيلي، يذكر ذلك أيضًا:

تسوكت لي بمسواك لتعلمني ... ما طعم فيها وما همَّت بإصلاح
لما أتاني على المسواك ريقتها ... مثلوجة كزلال الماء بالراح
قبلت ما مسَّ فاها ثم قلت له ... ياليتني كنت ذا المسواك يا صاح

وقال أيضًا:

يا أطيب الناس ريقًا غير مختبر ... الإشهادات أطراف المساويك
إن الذي راح مغبوطًا بنعمته ... كف تمسك أو كف يعاطيك
ولو وهبت لنا يومًا نعيش به ... أحييت نفسًا وكانت من مساعيك
يا رحمة الله حلي في منازلنا ... حسبي برائحة الفردوس من فيك

وقال أيضًا:

يطيب مواكها من طيب نكهتها ... وإن ألمَّ بجلد جلدها طار

وقال آخر:

وبراقة تفتر عن متبسم ... كنور الأقاحي طيب المتذوق

إذا مضغت بعد امتناع من الضحا ... أنابيب عيدان الأراك المخلق
سقت شعب المسواك ماء غمامة ... فضيضًا بمزوج العقار المصفق

وقال جرير:

ما استوصف الناس من شيء برزقهم ... إلا أرى أم نوح فوق ما وصفوا
كأنها مزنة غراء رائحة ... أو درة لا يواري لونها الصدف
مكسورة الثدي في لب يزينها ... وفي المناصب من أنيابها عجف
تسقى غمام ندى المسواك ريقتها ... كما تضمن ماء المزنة الرصف

وقال الفرزدق:

دعون بقضبان الأراك التي جنى ... لها الركب من نعمان أيام عرفوا
فمجن به عذب الرضاب عذابه ... رقاق وأعلى حيث ركبن أعجف

وقال ذو الرمة:

جرى الأسحل الأحوى بطفل مطرف ... على الغز من أنيابها فهي نصع

وقال آخر:

نظرت بعيني شادن وتبسمت ... بظمياء عن غر لهن غروب
جرى الأسحل الأحوى عليهنّ أو ... عليهن من ماء الأراك قضيب

وقال جرير:

يجري السواك على أغر كأنه ... برد تحدر من متون غمام
إقرا السلام على سعاد وقل لها ... يومًا ترد رسولنا بسلام

وقال أيضًا:

إن الشقاء وإن ضنت بنائلها ... فرع البشام الذي تجلو به البردا
ما في فؤادك من داء يحامره ... إلا التي لو رآها راهب سجدا

وقال جميل بن معمر:

بثغر قد سقين المسك منه ... مساويك البشام ومن غروب
ومن مجرى غوارب أقحوان ... شتيت النبت في عام خصيب

وقال آخر:

وغادين بالقضبان كل مفلج ... يبيه الظلم لم يقلل لهن غروب
رضابًا كطعم الشهد يجلو متونه ... من الأيك أو غض البشام قضيب
أولئك لولاهنَّ ما سقت نضوة ... ولا قابلتني في البلاد جنوب

وقال أيضًا:

إذا الريح من نحو الشمال تنسمت ... وجدت لرياها على كدي بردا
تخيرت من نعمان عود أراكة ... لهند ولكن من يبلغه هندا

وأنشدني أبو علي الحسن بن عليل العنزي قال: أنشدني الزبير بن بكار قال. أنشدني أبو مسلم الكلابي لمهدي بن الملوح الكلابي:

تبيت ليلى وقد كنا نبجلها ... قالت سقى الله ذاك المربع الجدبا
يا حبذا راكبًا كنا نهش له ... يهدي لنا من أراك الموسى القضبا

قال القطامي:

منعمة تجلو بخوط أراكة ... ذري برد عذب شتيت المناصب

كأن فضيضًا من غربض غمامة ... على ظمأ جادت به أم غالب
لمستهلك قد كاد من شدة الهوى ... يموت ومن طول العداة الكواذب

وقال بعض الأعراب وتروي للأميلس:

منعمة هيفاء عجزاء خدلة ... تمس مثاني شعرها قضبًا خزلا
وتجلوا بمسواك الأراك مفلجًا ... عذاب الثنايا لا قصارًا ولا ثعلا

وقال العطوي:

عندكن الفؤاد والقلب رهن ... في يدي ذات دملج ووشاح
وثنايا رقيقة كغدير ... من مدام وروضة من أقاح
فمساويكها بها كل يوم ... في رياض من اصطباح الراح

وقال علي بن الجهم:

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا ... وقد أتتك الهدايا من مواليك
فاتحفيني مما اتحفوك به ... ولا تكن تحفتي غير المساويك
ولست أرضاه حتى ترسلين به ... مما جلا الثغر أو ما جال في فيك

ولأبي الطيب في ذلك:

شهيدي على طيب اللثات وريقها ... أنابيب عيدان الأراك المفرع
كأن حباب الريق حين تمجه ... على شعب المسواك غير ممزع
رشاش ذكي المسك شيب بعنبر ... أو الراح من صفو العقار المشعشع

وقال مروان بن أبي حفصة:

شفاء الصدى ماء المساويك والذي أحب ... ستني الريق من خمل ينازلها طفل

فيـــا حبـــذا ذاك الـــسواك وحبـــذا به البرد العـذب الفـريض الـذي يجلـو

وأحسن محمد بن عبد الله بن طاهر حيث يقول:

وإذا ســألتك بعـض ريقـك قلـت لي أخـــشى عقوبـــة مالـــك الأمـــلاك
أيجـــوز عنـــدك أن يكـــون متـــيم يهـــواك عنـــدك دون عـــود أراك
مـاذا عليـك جعلـت قبلـك في الثـرى مـــن أن أكـــون خليفـــة المـــسواك

وهذا باب تطنب فيه الشعراء ويتسع لها القول في ذكره، وقد مضى من بعضه ما أغنى عن شرح كله، وأنا أصف لك جملة من جميل مناقبهم وما يؤثر من حسن مذاهبهم إن شاء الله تعالى.

باب صفة ذوي التظرف ومباينتهم لذوي التكلف

اعلم أن من كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء، صبرهم على ما تولدت به المكارم واجتنابهم لخسيس المآثم، وأخذهم بالشيم السنية، والأخلاق المرضية، وأنهم لا يداخلون أحدًا في حديثه، ولا يتطلعون على قارئي كتابه ولا يقطعون على متكلم كلامه، ولا يستمعون على مسر سره، ولا يسئلون عما وري عنهم علمه، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه، يتسرعون إلى الأمور الجليلة، ويتبطئون عند الأشياء الرذيلة، فهم أمراء مجالسهم بهم يفتح عسر الأغلاق، وبهم يتألف متنافر الأخلاق، تسموا إليهم الآفاق وتثني عليهم الأعناق، ولا يطمع في عيبهم العائب ولا يقدر على مثالبهم الطالب؛ ألا ترى أنهم لا ينتجعون ولا يتبصقون ولا يتثاءبون ولا يستنثرون ولا يتجشؤن ولا يتمطؤن، وذلك عيب عند الظرفاء مكروه عند العلماء، وفيه حديث مأثور حدثنيه عبيد بن شريك قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أخبرني يحيي بن أيوب قال: أخبرني ابن عجلان عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، وإن أحدكم إذا قال: هاها فإن ذلك الشيطان يضحك في جوفه**».

والظرفاء لا يتثاءبون ولا يتمطؤن ولا يوقعون أكفهم، ولا يشبكون أصابعهم، ولا يمدون أرجلهم، ولا يحكون أجسادهم، ولا يمسون آنافهم خاصة إذا كان أحدهم بين يدي خليله أو ربيطه أو حبيبه أو من يحتشمه ومن يكرمه، ولا يدخل أحدهم الخلاء من حيث يراه أحد، ولا يبول بين يدي أحد، وليس من زيهم الإقعاء في الجلسة، ولا السرعة في المشية ،ولا الالتفات في طريق قصدوه، ولا الرجوع في طريق سلكوه، ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم في المواضع المكنوسة، ولا يستريحون

في الأماكن المرشوشة، ولا يجلسون في مجلس فينتقلون منه، ولا يقعدون بحيث يقامون عنه، ولا يشربون ماء الأحباب ولا الماء في دكاكين الشراب ولا ماء المساجد والسبيل؛ وذلك مشني عند ذوي العقول، ولا يدخلون دكان هراس ولا دكان رواس، ولا يجتازون بدكان مراق ولا يأكلون شيئًا مما يتخذ في الأسواق، ولا يأكلون على قارعة الطريق ولا في مسجد ولا في سوق؛ وفي ذلك حديث مأثور وخبر مشهور حدثنيه أحمد بن الهيثم المعدل قال: حدثني سهل بن نصر وإسحاق ابن المنذر قال: حدثنا محمد بن الفرات قال: حدثني سعيد ابن لقمان بن عبد الرحمن الأنصاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الأكل في السوق دناءة**».

والظريف لا يأخذ شعره في دكان حجام ولا يدخل بغير متزر إلى الحمام؛ وقد حدثني أحمد بن محمد بن غالب -صاحب الخليل- قال: حدثني أحمد بن عبد الله بن هشيم بن مغيرة، عن إبراهيم قال: النظر في مرآة الحجام دناءة.

وحدثنا أحمد بن محمد بن غالب قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن راشد بن سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: من قلة مروة الرجل نظره في مرآة الحجام واطلاعه في بيت الحائك.

وقد ينبغي للظريف أن يدخل الحمام على خلوة لئلا ينظر فيه إلى سوءة ولا يمد عينه إلى أحد، ولا يعلق ثوبه على وتد ولا يُدلي رجله في البئر التي ينصب إليها الماء؛ فإن ذلك مما يفعله الأدنياء، ولا يدلك يديه بخرقة؛ فإن ذلك مما يستعمله السخفاء ولا يتمرغ على حرارة أرض الحمام؛ فإن ذلك مما يفعله سفلة العوام بل ينبغي له أن يدخله متزرًا ويقعد فيه معتزلًا ولا يقعد مستوفزًا على رجله؛ فإن ذلك طعن على عقله، ولا يميل مضطجعًا بل ينتصب متربعًا؛ حتى إذا انصب العرق من بدنه وتحدر

على جسده وكان عرقه بين الكثير والقليل نشفه عن بدنه بمنديل، ثم دعا لرأسه بالغسول والأشنان المنخول، فإن كان من أهل المروات والنعم وأهل البيوتات والقدر ممن لا ينسب في فعله إلى شيء ليس من شكله، فليبتدئ دخوله الحمام بالإمساك عن الكلام والتجرع من الماء الحار ثلاث جرع وليقعد للعرق فوق نطع حتى إذا عرق سلت بدنه وجم عرقه فوزنه، وهذا الفعل لا يصلح إلا لذوي نعمة أو شريف أو متأدب فيلسوف؛ وأما سائر الناس من أهل الظرف فإنهم ينسبون بهذا الفعل إلى السخف، ولا ينبغي لظريف أن يمشي بلا سراويل ولا يتزر بمنديل، ولا يمشي محلول الإزرار ولا مسبل الإزار، ولا يماكس في الشرى، ولا يركب حمار الكرى، ولا ينزل في خراب، ولا يقبض على كتاب، ولا يشارط صانعًا، ولا يصاحب وضيعًا، ولا يشاتم رفيقًا ولا يغتاب أحدًا ولا يذكر بسوء أخًا، ولا ينم بسريرة ولا يظهر خبيئة، ولا يخون عهدًا ولا يخلف وعدًا، ولا يضرب بين اثنين ولا يفسد بين خليلين، ولا يسعى إلى سلطان، لا يغمز بإنسان، ولا يهتك حرمة، ولا يتعرض لسرقة، ولا يتحلى بالكذب، ولا يستهدف للريب، ولا يجاهر بالزنى، ولا ينطق بالخنى، ولا يفسد حرمة الأخ الصديق، ولا حرمة الجار اللزيق، وأجود ما في هذا المعنى قول الاحوص بن محمد الأنصاري:

قالت وقلت تحرجي وصلي ... حبل امرئ بوصالكم صب
صاحب إذا بعلي فقلت لها ... الغدر مني ليس من شعبي
ثنتان لا أدنو لوصلهما ... غرس الخليل وجارة الجنب
أما الخليل فلست مخلفه ... والجار أوصاني به ربي

ومن تكامل ظرف الظريف ظهور بزته، وظهور طيب رائحته، ونقاء درنه ونظافة بدنه، ولا يتسخ له ثوب ولا يدرن له حبيب، ولا ينفتق له ذيل، ولا يرى في

دخار يصه ميل، ولا في سراويله ثقب، ولا يطول له ظفر، ولا يكثر له شعر، لا يفوح لإبطه دفر، ولا لبدنه غمر، ولا يسيل له أنف ولا يسود له كف.

ولا يظهر له شقاق، ولا يرشش له بصاق، ولا يقف في مأقه رمد ولا صواره زبد، ومن زيهم في مصاحبة الأرداء ومعاشرة الأخلاء حفظ العهود وإنجاز الوعود والدوام على الوفاء وقلة الرغبة في الجفاء وحسن المؤاتاة لاودائهم والمساعدة لأخلائهم والبشر بمن لقوا والتفقد لمن فقدوا والمساعفة بأبدانهم والمعونة بأموالهم وتخفيف المؤن على إخوانهم وكف الأذى عن جيرانهم والصفح عن المسيء لهم عند إساءته ومقابلة المحسن بإحسانه والترحيب بالصغير والتبجيل بالكبير.

وقد حدثني محمد بن يونس القيسي قال: حدثنا يزيد بن بيان قال: حدثنا أبو الرجال، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما من شاب أكرم شيخًا عند سنّه إلا قيَّض الله له من يكرمه عند سنّه»**. وقد يجب أيضًا على أهل المروءة مثل الذي يجب على أهل الظرف والفتوة والأدب؛ لأنهما ليسا باللذاذة والقصف ولا بالمفاخرة والحسب؛ وإنما هما بكمال المروءة والأدب، ولن يعرف الفتى جميل مواهب الفتوة إلا بسلوك طرائق المروة، وقد ذكرت الفتوة عند بعض العلماء فقال: إن الفتوة ليست بالفسق والفجور؛ ولكنها طعام موضوع، وأذى مرفوع، ونائل مبذول، وبشر مقبول، وعفاف معروف، واجتناب للقبيح وأدب ظاهر وخلق طاهر، وترك مجالسة أهل الشرور والسمو إلى معالي الأمور، والاحسان إلى من أساء ومكافأة من أحسن، وقضاء حوائج الناس. فهذه جملة من زيهم في حسن مناقبهم ومستحسن جميل مذاهبهم.

ولهم أيضًا رقة الطبع والتلطف في كل الأمور، والمداراة والتملق والتأني والترفق؛ ومن ذلك قوله: ممن حبَّ طبَّ، أي: رفق وداري، ومن ذلك سمي الطبيب طبيبًا لترفقه ومداراته، والعرب تقول: هو طب بالأمور، أي: عالم رفيق.

قال عمرو بن أبي ربيعة:

فأتيتهـــا طيبـــه عالمـــة ... تخلـــط الجـــد مـــرارًا باللعـــب

ترفـــع الـــصوت إذا لانـــت لهـــا ... وتراخـــى عنـــد ســـورات الغـــضب

ولهم حسن التأني فيما يريدونه، ولطيف الحيل فيما يحاولونه وخفي التلطف لما يطالبونه حوائجهم سرية، وسرائرهم مخفية وأمورهم باطنة، وحيلهم لطيفة يوردون الأمور مواردها، ويصدرونها مصادرها ولهم فيما استحسنوا من الهدايا بينهم البر والملاطفة والمكاتبة والتحفة من غيرهم ما يستصغر، ومن ذلك أنهم ربما أهدوا الأترجة الواحدة، والتفاحة الواحدة، والدستبويه اللطيفة، والشمامة اللطيفة، والغصن من الريحان، والطاقة من النرجس، والرطل من الشراب، والقطعة من العود، والمخزنة من الطيب، والشيء اليسي،ر والوهط الصغير، ونظير ذلك من الأشياء القليلة الحقيرة والذليلة التي لا قدر لها عند ذوي العقول، فيستكثر ذلك منهم ويلقى بالقبول وتستحسن هداياهم وتستظرف ويفرح بها وتستطرف، ورغبة غيرهم من الناس في الأشياء الجليلة والهدايا النبيلة والطرف السرية والتحف السنية، غير أهل الظرف فإنهم اقتصروا على اللطف اللطيف والبر الخفيف.

ومن ذلك كتبهم الملاح وألفاظهم الصحاح التي يستعطفون بها القلوب ويسترون بها العيوب، ويستقيلون بها العثرات ويستدركون بها الهفوات التي قد استخلصوها من بديع الحرير الصيني ومليح الملحم النيسابوري، وصفيق الدبيقي الحفي، ونقي التاختج، والقوهي.

وتغلغوا إلى الكتاب في ذلك بالذهب والمسك والزعفران والسك، واتخذوا لها طرائف المناديل الرقاق، وجياد الزنانير وختموها بالغالية المستمسكة، وطبعوها بنتف الألفاظ المهلكة، وقد ضمنت من مليح المكاتبة وطرائف المعاتبة وجميل المطالبة وشكيل المداعبة، ما يقربون به البعيد ويهونون به الشديد، وقد بينت ذلك أحسن البيان وشرحته بأخص المعاني ووصفت ما يتوصلون به من الرسائل وما يضمنونه كتبهم من الرسائل في كتاب مفرد وكلام مجرد، ترجمته كتاب فرح المهج، وجعلت ما فيه ذريعة إلى الفرح فأغنى عن تطويل هذا الباب ما مرَّ في ذلك الكتاب، وأنا أصف لك أيضًا في كتابنا هذا جملة ما استحسنوه بينهم في المكاتبة وما استعملوه بينهم من المعاتبة، وأقصد في ذلك إلى مداعبة الكتاب ومعاتبة الأحباب وما تعاتبوا به من الأبيات واختاروه من المقطعات وما ذكروا على العنوانات من الكلام وما ضمنوه في كتبهم من السلام على غير نقص مني لكل ما في ذلك من الأشعار؛ إذ كان قصدي في كل أبواب الكتاب إلى الاختصار، وبالله أستعين وأستكفي وإيَّاه أسترشد وأستهدي.

باب ما اختير من ألفاظ الأدباء في المكاتبات واستحسن من الظرفاء من مليح المعاتبات

أخبرني الوضاح بن ثابت الكاتب قال: كنت عند بعض الكتاب إذ دخلت عليه وصيفة كأنها قمر تتثنى في مشيتها كأنها جان أو كأنها غصن بان ريان حتى وقفت بين يديه، فقالت: مولاتي تقرأ عليك السلام، وتقول لك: يا أخي جفوتنا من غير استحقاق للجفاء، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء، وأني لم أزل واثقة بإخائك راجية لحسن وفائك وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنيك. فقال لها: أقرئي عليها السلام، وقولي لها: يا أختي أنا من ودّك على أحسن عهدك ومن الأمل لك على أضعاف ما عندك، ولقد استوحشنا من فقدك، فاجعلي لنا حظًا من أنسك. فسألته عنها فقال: جارية علي بن الجهم.

وأخبرني محمد بن إبراهيم الهمداني قال: أخبرني مولى لمحمد بن عبد الله بن طاهر قال: قرأت رقعة لمولاي إلى بعض إخوانه: يا أخي مددت يدًا إلى المودة مبتدئًا فشكرناك وشفعت لك بشيء من الجفاء فعذرناك، والرجوع إلى محمود الوداد أولى بك من المقام على مكروه الصد.

وكتب بعض الظرفاء إلى صديق له: أيدك الله بوفاء الأدب من النزع إلى الجفاء وجعل آخر سخطك موصول بأول الرضاء. وكتب بعض الأدباء إلى صديق له يستعينه على جفاء كان منه ليس من تدبير من شملته أبهة الحكم وسمت به معالي الهمم أن يعطف على عهود صديق بعقوق ولا تضمحل واجبات الحقوق، ولا تغيره نوب أيامه عن رعاية ذمامه والسلام.

وكتب آخر إلى صديق له: بدأتنا بمودة عن غير خبرة وهجرتنا من غير سبب يوجب طول الهجرة، وقد طمعنا أولئك في إخائك وآيسنا آخرك من وفائك، فسبحان من لو شاء كشف باليقين من الرأي عن غير سمة الشكوك في أمرنا فأقمنا على ائتلاف أو افتقرنا على اختلاف، والسلام.

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض الكتاب: بلغني حسن محضرك فغير بديع من فضلك، ولا غريب عندي من برك؛ بل قليل اتصل بكثير وصغير لحق بكبير حتى اجتمع في قلب قد وطّن لمودتك، وعنق قد ذلت لطاعتك، وليس أكبر سؤلها وأعظم أربها الأطول عمر بقاء النعمة عليك، والسلام.

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له: مازال أحمد من عواقب رأيك وأشبه من وفائك حتى وثق في ضميري من مودتك ما استنجدني لطاعتك واستوى على من موافقتك ما سهل على سبيل عتبك، فما أسلك بغلبة الهوى طريقًا إلا إلى رضاك، ولا أستعين بهواك منك عليك إلا كان عونًا عليك لك، ولنعم المستعبد لي أنت على المحامد واكتساب سنا الفوائد؛ ولذلك أقول:

عليَّ رقيب من هواك يقودني ... إليك على الحالات في السخط والرضى

وليس هواي حيث لا يستحقه ... ولكن هواي حيث كان لك الهوى

لساني رهين بالذي أنت فاعل ... ورأيي موصول بما كنهه ترى

وما زلت لي عونًا برأي موفق ... على صلة القربى بهدي أولي النهى

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك: سروري أعارني الله حياتك إذا رأيتك كوحشتي لك إذا لم أرك، وحفظي لك في مغيبك كمودتي لك في مشهدك، وإني لصافي الأديم غير نغل ولا متغير، فامنحني من مودتك مزن لذاذة مشربك، وكن لي كأنا فوالله ما عجت عن ناحيتك إلا وأنا محني الضلوع إليك، والسلام.

فكتب إليه محمد: يا أخي ما زلت عن مودتك ولا حلت عن أخوتك ولا استبطأت نفسي لك ولا استزدتها في محبتك، وإن شخصك لماثل نصب طرفي ولقل لما يخلو من ذكرك قلبي، ولله در الذي يقول:

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى ... لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي

يذكرنيك الشوق حتى كأنني ... أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له تبين منه جفوة: سيدي ألزمتني الخضوع وحرمت عليَّ الهجوع، وضرمت نارًا بين الضلوع فتركتني فيك لائذًا بالعدو وممنوعًا من السلو، منخفضًا من العلو بمنزلة من خان ودًا أو نقضَ عهدًا أو أخلف وعدًا أو أظهر صدًا أو جحد يدًا أو كفر عارفة أو غمط نعمة سالفة، سيدي لما اشتغلت بك النفس القلقة والعين الأرقة حلت عن محمود الوفاء وزلت عن غير ذنب يوجب عقوبة المجترم، وغير سبب يقدح في مودة العبد المهتضم الذي توقعه جريرته وتوبيقه خطيئته، وتحل به إساءته وتلزمه هفواته سيدي: أوقعني يسير جفائك وإعراض لحظاتك في بحار هموم عريقها صبابة وغموم، أخاطبك بلسان يعجز عن المخاطبة، وأكاتبك بيد لا تجزي إلى المكاتبة، وأناجيك بضمير الهيبةِ المشاهد لك في الغيبة مناجاة مغرم وصريع تجلد وحليف تلده، سيدي: كل عذاب ووجد جديد وسقام عتيد، فهو في محبتك والدوام على مودتك يسير؛ فأما السبيل إلى وجه السرور فمتعذرة، والخلاص في طرق السلامة إلى الراحة فمستوعرة، قد غلب الظمأ وبعد المورد وقلَّ العزاء وفقد الصبر، وانحلت العزيمة، وبطل الرأي، وثبت الهوى فتمكن في الحشاء فلا محيص لعبدك عنك ولا بد له في حالة السخط والرضى منك، سيدي: الرجوع إلى محمود الشيمة أشبه من العود بالفضل، والتطول بالوصل أولى بالمولى من الوقوف على الصدِّ الذي يقدح في النية ويزيل عقد الطوية، وشفيعي إليك الذي أرجو نجاح الشفاعة خضوعي لك واعتصامي بك وانحطاطي في طاعتك ووقوفي

بين يديك مستكينًا متحيرًا معترفًا؛ فإن ذلك أبلغ شفيع، وأنت فيما تراه في أمري أكرم مولى في كل حال فإنه يتوقع جواب كتابه بما يسكن إليه ويتجدد به النعمة، فحق تأميله وأكرم صفده وأقم أوده وعد في جفائه إلى دوام صفائه، والسلام.

باب ما ضمنوه كتبهم من الأشعار وتكاتب به ذوي الظرف والأخطار

أنشدني بعض الأدباء:

هـــذا كتـــاب متـــيم ... خطـــت إليـــك أناملـــه
مـــزج المـــداد بدمعـــه ... فبكـــت عليـــه عـــواذلـــه
أنـــت الطبيـــب فـــداوه ... يـــا مبتليـــه وقاتلـــه

وقال آخر:

هـــذا كتـــاب فتـــى لـــه هـــم ... عطفـــت إليـــك رجـــاءه همـــه
غـــل الزمـــان بـــدي عزيمتـــه ... ورمـــى بـــه مـــن حـــالق قدمـــه
أفـــضي إليـــك بـــسره قلـــم ... لـــو كـــان يعقلـــه بكـــى قلمـــه

وقال آخر:

هـــذا كتـــابي بـــدمع عينـــي ... أمـــلاه قلبـــي عـــلى بنـــاني
إلى غـــزال كنيـــت عنـــه ... يجـــل عـــلى اســـمه لـــساني

وقال آخر:

هـــذا كتـــاب أخـــي هـــوى وصـــبابة ... لا يـــستطيع لمـــا بـــه كتمانـــا
لاقـــى الـــدواة بعـــبرة مـــسفوحة ... كانـــت لمـــضمر لاعـــج عنوانـــا
قـــرح الفـــؤاد تعـــوده أشـــجانه ... لمـــا بـــه بخـــل الطبيـــب وخانـــا

وقال آخر:

هـــذا كتـــاب متـــيم ... يـــشكو الـــصبابة في كتابـــه

فـــاردد عليـــه جوابـــه كـــي يـــستريح إلى جوابـــه
لـــو كـــان ينطـــق ذا الكتـــا ب شـــكا إليـــك عظـــيم مـــا بـــه

وقال آخر:

هـــذا كتـــاب فتـــى شـــكا سـقما ألـــف الـــسُّهاد فـــشفه ســـقمه
يبكـــي عليـــه جفـــون مقلتـــه عـــدد الحـــروف وقـــد بكـــى قلمـــه
لـــولا مراقبـــة العـــدو ومـــن أضـــحى مـــن الرقبـــاء يتهمـــه
لبكـــى علانيـــة وقـــال لهـــم بـــرح الخفـــاء وبـــاح مكتتمـــه

وقال آخر:

هـــذا كتـــابي إليـــك أشـــكو إن لم تجـــد لي فـــما احتيـــالي
كتبـــت أشـــكو إليـــك مـــا بي ممـــا أقـــاسي فـــما تبـــالي
يـــا حـــسن الوجـــه كـــن شـــفيعي إليـــك إن لم أبـــح بحـــالي
مـــا ذكـــر القلـــب منـــك شـــيئًا إلا تمثلـــت لي حيـــالي

وقال آخر:

هـــذا كتـــاب فتـــى لغيـــك حـــافظ صـــب بـــذكرك مـــستهام مـــدنف
إن غبـــت آنـــس طرفـــه بدموعـــه وإذا أصـــابك طرفـــه لم يطـــرف

وقال آخر:

هـــذا كتـــاب أخـــي هـــوي مـــشتاق قـــرح اجفـــون بدمعـــه المهـــراق
أمـــلى هـــواه عـــلى بنـــان يمينـــه فأبـــان كيـــف مـــصارع العـــشاق
وكأنـــه ينبـــي بـــما في نفـــسه مـــن طـــول شـــوق واكتئـــاب بـــاق

وقال آخر:

هـذا كتـاب متـيم مـشتاق ... يـشكوا إلى مـستظرف ذواق
أهـدي لـه الهجـران بعـد تواصـل ... وكـذلك فعـل الخـائن المـذاق
مـا هكـذا فعـل الكـرام فـأجملي ... وتحرجـي أن تنقـضي ميثـاق
وأرثـي لـصب هـائم قـد شـفّه ... طـول النجيـب وشـدة الإطـلاق

وأنشدني إبراهيم بن محمد لنفسه:

هـذا كتـاب متـيم في قلبـه ... نـارًا تـضرم بكـرة وأصـيلا
فـإذا قـرأت كتابـه فاجعـل لـه ... بعـد الـصدود إلى الوصـال سـبيلا
فلقـد تركـت فـؤاده في غمـرة ... وتركـت في الأحـشاء منـه غليـلا
ولقـد تـبرم بالحيـاة وطولهـا ... وعـسى مـداه أن يكـون قليـلا
لا تغـرين بـه رداه وحيتـه ... حاشـاك أن تـردي يـداك قتـيلا
حاشـاك مـن قلـق أطـار رقـاده ... فـأبى الرقـاد فـما يلـذ مقـيلا

وأنشدني أيضًا لنفسه:

هـذا كتـابي إليـك فـاقرأ ... كتـاب ذي صـبوة عميـد
أقلقـه شـوقه المعنـي ... وهـذه لوعـة الـصدود
لكنـه في الظـلام يبكـي ... بكـاء ذي الفقـد للفقيـد
إن كنـت غـضبان فـارض عنـي ... رضى المـوالي للعبيـد

ولأبي الطيب في هذا المعنى:

هـذا كتـابي إليـك فـاقرأ ... كتـاب مـن شـفّه الـسقام
وارث لـسقمي وطـول صـبري ... فقـد وهـت منـي العظـام

ولا تـــرد قتلتـــي وهجـــري ... فقتـــل حلـــف الهـــوى حـــرام

وقال آخر:

أثـــر المحـــو في ســـطور كتـــابي ... شـــاهد لي بعـــبرة وانتحـــاب
وبكـــائي يـــدل أني ســـقيم ... خاضـــع للهـــوى طويـــل العـــذاب
أنـــا بـــين الرجـــا واليـــأس وقـــف ... لـــست أدري بـــما يكـــون جـــوابي
فـــإذا اشـــتقت أن أراك أنـــادي ... فـــرج الله لي مـــن الحجـــاب

وقال آخر:

غـــضبت لمحـــو في الكتـــاب كثـــير ... قالـــت أراد خيـــانتي وغـــروري
كتـــب الكتـــاب عـــلى خـــلاف ضـــميره ... والمحـــو فيـــه لعلـــة التغيـــير
مـــا كـــان دمعـــي للغـــرور وظـــنكم ... كـــلا ولا للـــسهو والتقـــصير
كتبـــت بميني والـــدموع هـــو أطـــل ... حـــذر الفـــراق لمـــا يجـــن ضـــميري
فـــالمحو مـــن قبـــل الـــدموع وإنـــما ... تجـــري دمـــوع العاشـــق المهجـــور

وقال آخر:

مـــا زلـــت أبكـــي وفي يـــدي قلـــم ... حتـــى اســـتهلت مـــبدامع القلـــم
أكـــتم وجـــدي والـــدمع يظهـــره ... بواكـــف كـــالجمان منـــسجم
مازلـــبت خلـــوًا مـــن الهـــوى فلقـــد ... عـــذبني مـــن هويـــت بالـــسقم
يـــا ســـيدًا تـــاه مـــا يكلمنـــي ... نمـــت وعـــين الـــشجي لم تـــنم
أنـــا قتيـــل الهـــوى وميتـــه ... لاعـــذّب الله قـــاتلي بـــدمي

وقال آخر:

إني رفعـــت إليـــك قـــصة عاشـــق ... ورجـــوت عـــدلك فـــانظري في قـــصتي

ولقد كتبت ودمع عيني ساكب ... فإذا قرأت فأحسني وتثبتي
إن الدموع تفجرت فتحدرت ... منها فنون في صفات مودتي
لا فرج الله الصبابة والهوى ... عني ولا زالت عليك مجنتي

وقال آخر:

أما الرسول فقد مضى بكتاب ... يا ليت شعري ما يكون جوابي
وتعجلت روحي الظنون وأشربت ... طمع الحريص وخشية المرتاب

وقال آخر:

أسأل الله خير هذا الكتاب ... قد أتاني برحمة وعذاب
أشتهي فكه فأفرق منه ... ففؤادي مفرق الأسباب

وقال آخر:

كتاب صب بدمع عين ... يملؤه قلبه الكئيب
يكتبه كفه بضعف ... وما لها في الهوى نصيب

وقال آخر:

أما الكتاب فقد مضى وأمامه ... خوف الرقيب وسطوة الحجاب
طلب الجواب فأحسنوا في ودكم ... لا تبخلوا عني برد جواب
هل تنقذون متيمًا ذا صبوة ... أضحى أسير تذكر وتصابي
جودوا عليه برحمة وتعطف ... فلقد أطلتم بالصدود عذابي
أما الكتاب فمن كئيب عاشق ... كلف الفؤاد مواصل الأوصاب
لكنه عاد إلى ذي سلوة ... متعتب في غير كنه عتاب

وقال آخر:

لولا الكتاب الذي جاء الرسول به ... من الحبيب لذاب القلب واحترقا
جاء الرسول على يأس بموعده ... وقد قضيت فأحيي لي به رمقا

وقال آخر:

صليني بالكتاب وبالسلام ... وزوري زورة في كل عام
وجودي بالكتاب وعنونيه ... إلى الصبِّ الكثيب المستهام
من الشمس المنيرة يوم دجن ... وبدر لاح من بين الغمام
وناحلة فديتك يا مناي ... أمانًا للفؤاد من الغرام

وقال آخر:

كتبت إليَّ يا روحي كتابًا ... فوافق منيتي وبلوغ سؤلي
ولولا لعيب همَّت ليك لما ... تناولت الكتاب من الرسول
مخافة نظرة من عين واش ... وتشنيع المقالة بالخليل

وقال آخر:

لم يزدني الكتاب إلا اشتياقًا ... واشتعالًا من الهوى في ضميري
بأبي أنت يا حبيبة قلبي ... ومناي وغايتي وسروري

وأنشدني أبو عبد الله الواسطي لنفسه:

كتبت إلي تذكر ما تلاقى ... من الشوق المبرح والفراق
لعمرك ما أتهمتك في وداد ... ولكن لم تلاق كما ألاقي
فؤادي هائم والعين تذري ... دموعًا تستهل من المآقي
وقد ذقت الفراق وكان مرًّا ... كريهًا طعمه عند المذاق

عـــلى أني وإن أبـــديت صـــبرًا ... عـــلى حـــدِّ الـــصبابة غـــير بـــاق

وقال آخر:

قـــولا لمـــن كتـــب الكتـــاب بكفـــه ... ارحـــم فـــديتك ذلتـــي وخـــضوعي
مازلـــت أبكـــي مـــذ قـــرأت كتابهـــا ... حتـــى محـــوت ســـطوره بـــدموعي

وقال آخر:

الـــدمع يمحـــو ويـــدي تكتـــب ... عـــن الهـــوى وامتنـــع المطلـــب
أنـــار خـــدي قمـــر زاهـــر ... إليـــه مـــن زهرتـــه المـــذهب
لقـــد بـــراني ســـقم قاتـــل ... وهـــدَّ جـــسمي دنـــف متـــصب

وقال الحسين بن وهب:

يـــا منـــاي وسروري ... جهـــدنا غـــير يـــسير
والـــذي نـــشكوه في الكتـــ ... ـــب قليـــل مـــن كثـــير
لم تطـــق ألـــسنتنا مـــن ... وصـــفه عـــشر عـــشير
فثقـــي يـــا بـــأبي أنـــ ... ـــت بمكنـــون الـــضمير
ثـــم قـــولي مطلـــع الجـــو ... زاء والـــشعرى العبـــور
حفـــظ الله فتـــى بـــا ... ت لهـــا خـــير ســـمير

ولبعض المحدثين:

مـــن الـــوهم مـــن آثـــار قـــبر مـــسنم ... وهـــام ثـــرى قـــبر القتيـــل المتـــيم
ومـــن طلـــل الـــشوق لم يعفـــه البلى ... ونـــؤي وفـــاء لـــيس بالمتهـــدم
إلى زينـــة الـــدنيا ومنيـــة أهلهـــا ... وأحـــسن مـــن يزهـــو بطـــرف وميـــسم
وأملـــح خلـــق الله قـــدرًا وصـــورة ... ودلًا وادلالًا عـــلى حـــب مغـــرم

سلام على من شفّني وأذابني ... وأسكن قلبي كل وجد ومأثم
ووكلني بالنجم أرعى أفوله ... وأندبه بالدمع طورًا وبالدم
وأحمد من أبلى شبابي بحبكم ... على البؤس والسراء حين التنعم
وبعد فقد والله يا سؤل عبدها ... ومولاته أنضجت أحشائي فاعلمي

ومما ضمنوه كتبهم من السلام وجعلوه تلوًا للشعر والنظام

عليك سلام لا سلام مودع ... ولكن سلام لم يكن آخر العهد
سلام محب خانه حسن صبره ... فأصبح في كرب الحياة وفي جهد
آخر عليك سلام الله ما هبَّت الصبا ... وما قرقر القمري في ورق السدر
سلام سقيم مدنف القلب مقرح ... مشوم عليل مشعل القلب بالجمر
آخر عليك سلام الله ما لاح كوكب ... بأفق لساري الليل واستوثق البدر
سلام غريب شفه الوجد والهوى ... وبلَّ حشاه الهم والذكر والعبر
آخر عليك سلام الله هل أنا ميت ... بداء هوائيك الشقي المقلقل
فعيشي بخير واسلمي ليس حبكم ... ولا الوجد عني ما حييت بمنجلي
آخر عليك سلام الله أما قلوبنا ... فمرضى وأما ودُّنا فصحيح
نبيت بود خالص وصبابة ... ونغدو بحب صادق ونروح
آخر عليك سلام الله قد شطت النوى ... وقد كدت ألقى الله من كمد جهدا
أموت بوجد مضمر وصبابة ... أزداد إن زدتم على نأيكم صدا
آخر عليك سلام الله قدمت صبوة ... ومالي عزاء مذ نأيت ولا صبر
أرى الصبر عنكم كاسمه مذ نأيتم ... فقد وجلال الله ضاق به الصدر
آخر عليك سلام الله قلبي متوق ... وجسمي نحيل والمدامع تذرف
ومثل الهوى أضنى الحشا وبمثل ما ... بليت به تنكي القلوب وتشعف

وقال آخر:

عليك سلام الله قدر صبابتي ... إليك وشوقي أنني مدنف القلب

أبيت حليف الهمّ والوجد والأسى ... رهين يد الأحزان والشوق والكرب
آخر عليك سلام الله ما حنّ آلف ... وما اشتاق ذو وجد وما طلع الفجر
سلام مشوق نحوكم متطلع ... أخي حسرات خانه فيكم الصبر

باب ما كتبوه على العنوانات وسلكوا به سبيل المداعبات

إلى ستي ومالكتي وروحي ... من الجسد الطريح بغير روح
آخر إلى الشمس المنيرة حين تبدوا ... غداة الدُّجن من يوم الغيوم
من الصبُّ الكئيب أخي التصابي ... حليف الشوق محتبس الغموم
آخر من الدنف الذي يضحي حزينًا ... وبين ضلوعه قلب مصاب
إلى الخود التي أبلت شبابي ... فأضحى ما يسيغ لي الشراب
آخر مني إلى قلبي ولم أر كاتبًا ... يخطّ بأقلام إلى قلبه قلبي
أرى كل شيء باليًا متغيرًا ... وحبك لا يبلى ولكنه يُبلي
آخر مني إليك فإني هائم دنف ... حلف السقام براني الشوق والأسف
النفس ذاهبة والعقل مختلس ... والقلب محتبس والروح مختطف
آخر مني إليك فما وجدي بمنصرم ... حتى الممات وما قلبي بمعذور
لو رأيتك يوما لانقضى حزني ... وعاد عيشي صفوا بعد تكدير
آخر مني إليك فاني هائم قلق ... حليف هم قرين العين بالسهد
الله يعلم ما بالقلب من قلق ... إذا نأيت وما ألقاه من كمد

وقد مضى من هذا الباب ما فيه كفاية، ولو ذهبت إلى تطويله لم يكن لآخره نهاية، وقد أحببت أن أختم كتابنا بأشياء يستحسنها الظرفاء ويميل إليها الأدباء مما يكتب على الأقلام من التتف وملح المقطعات والظرف، وأنا ذاكر في ذلك بعض ما استحسنته وملحًا مما استرققته، إن شاء الله قد جمعنا في هذا الفصل أشياء من مستظرفات الأشعار ومستحسن الأخبار، ومنتخل الأبيات ومنتحب المقطعات ونوادر الأمثال وملح الكلام، الذي يجوز كتابه على الفصوص والتفاح والقناني

والأقداح، وفي ذيول الأقمصة والأعلام وطرز الأردية والكمام، والقلانس والكرازن والعصائب والتكك والوقايات، وعلى المناديل والوسائد والمخاد والمقاعد والمناص والحلل والأسرة والتكك والرفارف، ووجوه المستنظرات وفي المجالس والإيوانات وصدور البيوت والقباب وعلى الستور والأبواب والنعال السندية والخفاف الزنانية، وعلى الجباه والطرز وعلى الخدود بالغالية والعنبر، وعلى الوطأة والوشاح، وفي تفليج الأترج والتفاح، ومما يعدل به من تنضيد الورد والياسمين، ويكتب على أواني الذهب والفضة والسكاكين وقضبان الخيزران المدهونة، والمخاد الصينية والمراوح والمذاب والعيدان والمضارب والطبول والمعازف والنايات والأقلام والدنانير والدراهم، وجعلنا ذلك أبوابًا مبوبة وحدودًا مبينة؛ لتقف على أصولها وتبين حسن فصولها.